العلاقات الفلسطينية ــ «الاسرائيلية»

يخصص الكاتب قصتين عن «الاسرائيليين»، من خلال شخصيتي الكولونيل عزرا في بيته، وامرأة فقدت زوجها في «الدفرسوار». ولعل الكولونيل عزرا، الممل، المضجر، المقزز، استدعى لجوء الكاتب إلى التنقيط، بحيث تحولت قصة «اجازة» إلى اشباه جمل سردية، متلاحقة، ومضجرة. فالكولونيل، في علاقته بزوجته واولاده، هو نموذج الصلف والتخلف والقذارة. فعلى زوجته أن تقدم له الطعام الجاهز فور وصوله، وعليها أن تمارس معه الجنس حتى ولو كانت مريضة، وعندما يستيقظ صباحاً، في الخامسة، «أيقظ زوجته، قامت لتعد له القهوة»، وأنهض الأطفال باسمائهم تحت حجة «يجب أن يعتادوا على النهوض مبكراً» رغم أنه يوم اجازة. وفجأة جاء الاستنفار «لقد عملوها أولاد القحبة... اولاد الزونة»، وعلى اللاسلكي قال: «لا تستعملوا الغاز حتى احضر»(ص ٨٢).

فوُضع الكولونيل، أمام جبروته العائلي، وصلفه وغروره، كانعكاس لأثر المقاومة الشعبية للاحتلال على أعصابه ومشاغله من جهة، وكممر حتمي إلى افق مسدود، لا يقدم لأطفاله سوى الارهاب، ولزوجته غير العبودية، ولنفسه غير الانتحار البطيء كمداً.

ومن الانتحار البطيء، إلى الانتحار الفعلي، ينتقل الكاتب من «أجازة» إلى «شارات في الطريق إلى غويافان» فالزوجة تلتقط مفتاح الكذب في فلسفة الرابي اليهودي، «عندما احضروا جثته قال لي الرابي إنه بطل... لقد تحول زوجي إلى بطل بعد أن أصبح طفلي جائعاً وأنا اصبحت لا اعرف شيئاً» (ص ٨٤ – ٨٥) ومرة اخرى تعود إلى تلخيص فلسفة الرابي «لقد خلقنا لنموت، ولننجب اطفالاً ويموتوا، وسنقهر اعداءنا عندما يدركون إننا انكسرنا أبطالاً وتركنا الخراب في المدينة» (ص ٨٦).

إن الرابي المجسد للفلسفة الصهيونية، ولكلمات الشاعر الصهيوني يهودا عميحاي: هذه الأرض التي يسكن الأموات /تربتها/ بدلاً من الفحم والذهب والنحاس ــ الوقود لمجيء الخلاص، هذا الرابي، لا يجد في اليهودي سوى مادة للحريق والموت. لكن المعادلة تهتز، ويدخل الفدائيون إلى الشعر، حين يقول يعقوب باسار:

كنت شاعر المملكة
بها اثنان يحكمان في الليل،
وواحد في النهار.

حتى يأتي الصوت الشعري الثالث، فيندغم في فجيعة زوجة القتيل، عندما يسأل مستنكراً: إلى متى يظل يومنا المأمول/على دمنا يسير؟!*

هكذا شهد سلمان ناطور على لوحته البانورامية، فجسد مصائر أبطال يكافحون على أرض شاسعة، هي وطنهم، واظهر خوف الصهيوني من الافلاس والعري وتمسكه بالتزوير. ولأن «المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد»، كما قال أبو عثمان الجاحظ في كتابه «الحيوان»، فإنه في «البخلاء»، في تزوير عبدالرحمن الثوري لعياله، يكاد يكشف تزوير عزرا والرابي «كلوا الباقلي بقشوره، فإن الباقلي يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله. فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم؟!».

علي حسين خلف

---

* د. ابراهيم البحراوي، **الأدب الصهيوني بين حربين**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعـــة أولى، حزيران (يونيو) ١٩٧٧.